

أَنجُمُ السِّيَاسَةِ

وقصائد أخرى^(١)

قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة الصديقية

الأستاذ عبد الله كنون

هذه قصيدة أخرى من أروع الشعر وأبدعه ، الذي بقي منسياً ولم يعرف طريقاً إلى النشر مطلقاً ، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بلغة المطبوعة ، لم تتضمنه ولا أشارت إليه ، فيما نعلم ، بعد التتبع مدتي طويلاً ، وإنما هي من الوجادات المنفردة التي عثرنا عليها في بعض المجمع ، فالفيناها من الأعلام النفيسة التي لا يصح أبداً أن تكون مهملة ، ويخلو ديوان العرب منها . وهي قصيدة في مناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، اشتملت على ذكر فضائلها وفضائل والدها أبي بكر الصديق ، ومجادلة الخصوم المبغضين لها المتقولين عليها ، ومحاجتهم بالدليل من الكتاب والسنة ، في إيمان صادق ودفاع حار ، وبالواقع التاريخي الذي لانزاع فيه من سيرتها العطرة ، وسيرة أبيها الخليفة الأول رضوان الله عليه ، وكل ذلك بأسلوب بارع وبيان رفيع ، ونظم محكم متين . وبما أبرّ به صاحب هذه القصيدة ، أنه جعلها على لسان السيدة عائشة نفسها فبعد المطلع الذي يؤذن بمقصوده ، تخلّص في البيت الثاني إلى إعطائها الكلمة ، فجعلها هي التي تناظر وتُفاخر وتدفع في نحور الأعداء بسلاح الحجّة والبرهان الذي يطوّقهم الحِزْبِي والعار ، فلو أنها رضي الله عنها نطقت فعلاً بشعر في

(١) انظر ص ٤٢ وما بعدها . ج ١ م ٤٨ من هذه المجلة .

الموضوع ، لما زادت على ما احتوته هذه القصيدة ، وهي من هي قوة بيان
و شدّة عارضة .

وهذا بما يدل على بلاغة منشئها ومقدرته البيانية ، وتمكّنه من صناعة الشعر
فضلاً عن رسوخ قدمه في المعرفة بعلم الحديث والسيرة النبوية والتاريخ وسائر
العلوم الإسلامية . وإذن فمن هي هذه الشخصية العلمية الكبيرة ؟

صاحب القصيدة

كما أهملت القصيدة أهمل صاحبها ، فلم نقف له على ترجمة في كتاب ، مما وصلت
إليه يدنا من كتب التراجم الأندلسية والعامّة . وغاية ما نجده مذكوراً مع القصيدة
هو اسمه المجرد من كل تعريف أو تحديد لعصره بالوفاة أو غيرها ، وهو يقع في
كل النسخ التي سنذكرها من بعد ، بصورة واحدة هكذا : أبو عمران موسى بن
محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي .

وقد أوحى لنا هذا الوصف من أول وهلة أنه ربما (ورُبّ للتكثير) أطلق
عليه في المشرق ، لأنه لا يصح أن يعرف به وهو في بلده الأندلس ، فالأندلسيون
يُنسَبون عادة إلى قبائلهم أو مدنهم وقراهم ، وقلمما يجري وصف الواعظ بينهم
مقصوراً على شخص بعينه . . . وبالعكس من ذلك فإن الشخص إذا اغترب كثيراً
ما ينسى أصله وينسب إلى قطره فقط ، والوصف بالواعظ معهود في المشرق
متداول ، منذ أن ترك وصف القاصّ الذي لم يُستعمل هو أيضاً في الأندلس
ولا في المغرب عموماً .

وعليه يكون صاحبنا قد رحل إلى المشرق ، وزاول هناك مهمّة الوعظ
فعرف بها ونُسب إلى قُطره الأندلس ، وتُنومي نسبة الأصيل ، بل تُنوسيت
ترجمته في بلده وفي المشرق ، كما وقع لكثير غيره ممن رحل إلى المشرق من
المغرب أو إلى المغرب من المشرق ، وقد كُنّا أشرنا إلى هذه الحقيقة في تعريفنا
بالواعظ البغدادي صاحب القصائد الوترية الشهيرة .

وقد تحقق لنا هذا الاحتمال عندما اطلعنا على نسخة شرقية من القصيدة كتبت في مصر ، وعليها سماع من الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس ، متصلٌ بناظمها . وقد جاء في آخر هذا السماع أن الأفضل وزير مصر السُّنِّي أجازه عليها بمائة دينار لما بلغته .

وأهمية هذا السماع عظيمة جداً ، لأنه أفادنا برحلة المترجم إلى المشرق أو مصر على الأقل ، حيث أُطلق عليه اسم الواعظ الأندلسي على ما رجحناه آنفاً . وحدد لنا تاريخه أو عصره على الأصح ، وهو آخر القرن الخامس وأوائل السادس فإن الوزير المشار إليه توفي سنة ٥١٥^(١)

وهو الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وزر للمستنصر والمستعلي والامر من خلفاء الفاطميين بمصر، وأظهر الميل للسنة ، وأبطل الكثير من مراسم الشيعة وكان من العدل وحسن السيرة على صفة جميلة^(٢) فلا غرو أن 'يجيز' شاعرنا على قصيدته في مدح أم المؤمنين عائشة بتلك الجائزة السنوية التي تفوق قيمتها المعنوية قيمتها المادية، لاسيما إذا تذكرنا أن الدولة شيعية، وأن رأي الشيعة في عائشة وأبيها ليس بذلك . ولكن الرجل ، وإن نشأ في هذه البيئة الشيعية وولي أعظم منصب للخلفاء الفاطميين ، لم يكن مغالياً في الانتصار لمذهب الدولة ، على ما ينبغي للوالي أن يكون ، بل إنه كان يميل لمذهب أكثرية الرعية ، وهو مذهب السنة ، فكانت إجازته للقصيدة تعبيراً عن تقديره لها ولصاحبها . وقد ثبت في تاريخه أيضاً أنه أجرى على العالم أبي بكر الطرطوشي في الإسكندرية، دينارين في اليوم، والطرطوشي من أئمة السنة المعروفين ، فهذا من أكبر الأدلة على تفتُّحه وعدم تعصبه .

والخلاصة أن صاحبنا الواعظ الأندلسي زار مصر في مدة وزارة الأفضل ، وهي تمتد ما بين الثلث الآخر من القرن الخامس وأواسط العقد الثاني من القرن الذي يليه ، ولعله أقام فيها طويلاً ، مثل الإمام الطرطوشي ، فإن عبارة السماع

(١) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١٧٥

(٢) المرجع السابق .

القائلة إن الأفضل أجازته على قصيدته « لما بلغته » تدل على ذلك .
ولا يبعد أنه قام في مصر بنشاط أدبي مما يرتبط بصفته العلمية ، ومن ثمّ
اكتسب وصف الواعظ الذي صار حلية لازمة له ، فمصر حينئذ كانت بحاجة الى
أمثاله ممن يقفون في وجه الدعوة الفاطمية ، ويرفعون علم السنة ، كمواطنه
الطرطوشي ، ولا شك أنه عقد صلواتٍ مع رجالات مصر من أهل طبقاته ، كما
يؤخذ من نص السماع الذي ينتهي برواية القصيدة عنه ؛ من طرف واعظ مثله
هو أبو طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ .

السماع

لا يعيننا من السماع المذكور غير دلالاته التاريخية ، ولذلك فنحن لانهم
بغير هذا الجانب منه ، وقد ثبت عقب النسخة الشرقية من القصيدة الموجودة
بآخر كتاب (هدايات الباري على ثلاثيات البخاري) لعلي الخليلي مخطوط
بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم ٦٠

وهو بخط مصطفى الحكيم الذي وصف نفسه بخادم العلم بالأزهر ، ناقلاً له
من خط من نقل من خط الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الذي أنشده إياها هو
وجماعة من المشايخ الشيخ مرتضى الزبيدي ، بجامع شيخو العُمري ، بالسند
المتصل الى أبي طاهر عبد المنعم بن موهوب اليزني الواعظ : أنشدنا أبو عمران
موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي لنفسه في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ،
وأجازته الأفضل وزير مصر السنّي عليها بمائة دينار لما بلغته رضي الله عنها ورحم
الله القائل . وفي السند الشمس الرملي وشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري والحافظ
ابن حجر . وهو ما بين قراءة ومسماع ، ويليه تصحيح بخط الشيخ مرتضى قائلاً :
إن الشبراوي المذكور مسموع منه القصيدة هو ونحو ثلاثين نفساً ضبطت أسماؤهم
على ظهر نسخة الأصل ، وذلك يوم الإثنين لليلتين بقيتا من شعبان سنة ١١٨٦ . ثم
بخط الشبراوي مسماعان لبعض من أخذها عنه ، أحدهما بتاريخ ثاني شوال عام
١١٨٩ ، والثاني بتاسع محرم عام ١٢٠٢ ، وبعدهما : كتبها لنفسه محمد أحمد

المرصفي الشافعي سنة ١٢٥٥ ، ومن خط المرصفي نقل مصطفى الحكيم كل ما ذكر فهو أحدث تاريخاً من هذا.

وعلى أي حال فإن هذا السماع يبين القيمة الكبيرة للقصيدة ، وما تلقاها به هؤلاء الأعلام من حفاوة بالغة ، وهي جديرة بذلك .

نسخ القصيدة

وقفت على أربع نسخ من قصيدة الواعظ الأندلسي . الأولى منها ، والتي طالت صحبتي لها منذ أصبحتُ أقدّرُ قدرَ هذه الكنوز الأدبية ، هي نسختي الخاصة التي توجد ضمن مجموع خطي بمكتبتنا الكنثونية ، وهي بخط مغربي جميل تغلب عليه الصحة ، ولا يتدنى تاريخها عن القرن الثاني عشر ، وقد نالت الأرضة من أطراف الصفحات الثلاث التي كتبت عليها ، ولكنها لم تؤثر في نصها تأثيراً يذكر والثانية والثالثة والرابعة هي من محتويات المكتبة العامة بتطوان ، وتقع ضمن ثلاثة مجاميع تحمل على الترتيب الأرقام التالية : (٦٥٦) و (٨٣٠) و (٦٠) والرقم الأخير هو رقم كتاب هدايات الباري على ثلاثيات البخاري الذي تقدم الكلام عليه ، وهو بخط شرقي وسط ، وكذلك القصيدة والسماع الذي يوجد عقبها ، وهي لا تخلو من تصحيف وتمتاز بزيادة بيت في وصف الصديق خلدت منه بقية النسخ .

أما نسختنا المجموعتين الآخرين فإنها بخط مغربي لا بأس به ، وترجعان فيما نظن إلى القرن الماضي ، وتشتملان كذلك على هتّوات ترجع في الغالب إلى ضعف الثقافة الأدبية عند ناسخيهما ، كما يمكن أن يقال في النسختين السابقتين ولو أن من يهتم بهذه الآثار لا يكون من غير أهل العلم . لكن العلم شيء ، والأدب شيء آخر .

وقد قابلنا هذه النسخ بعضها ببعض ، واستخرجنا منها النسخة الصحيحة في نظرنا ، ونبها في التعليق على الخلاف الجوهري الذي بينها ، وشرحنا كذلك

ما يحتاج إلى الشرح من معانيها وألفاظها ، ولا سيما إشاراتنا المتعلقة بنصوص الكتاب والسنة التي لا يتأتى لكل قارئ العثور عليها .

هذا ، وثمّ نسخة خامسة للقصيدة بمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية لم نطلع عليها لأنها عبّئت منذ مدة مع بعض المخطوطات في صناديق لضرورة ما ، كما أخبرنا أحد المسؤولين في المعهد ، فلم يمكن الاهتداء إليها .

* * *

وهذا نص القصيدة :

- | | |
|---|---|
| (١) ما شأنُ أمِّ المؤمنينِ وسَّاني | هُدِي الْمُحِبُّ لَهَا وَضَلَّ الشَّانِي ^(١) |
| (٢) إني أقولُ مُنْبَهًا عن فضلها ^(٢) | وَمُتَرَجِمًا عن قولها بلساني |
| (٣) يا مُبَغِضِي لا تاتِ قبرِ مُحَمَّدٍ | فالبیتُ بيتي والمكانُ مكاني |
| (٤) إنِّي خُصِّصْتُ على نساءِ محمّدٍ | بصفاتٍ برٍّ تحتمنُ معانٍ |
| (٥) وسبقتهن إلى الفضائل كلِّها | فالسبقُ سبقي والعينانُ عِناي |
| (٦) مَرِضَ النَّبِيُّ ومات بين ترابي ^(٣) | فاليومُ يومي والزمانُ زَماني |
| (٧) زوجي رسولُ الله لم أرَ غيرَه ^(٤) | اللهُ زَوْجِي به وَحَبَّانِي |
| (٨) وأتاهُ جبريلُ الأَمِينُ بصُورتي | وأحبَّني المختارُ حينَ رآني ^(٥) |

(١) الشاني : المبغض

(٢) عن هنا بمعنى على كما في قول الشاعر :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب عني ولا أنت ديباني فَتَخْزُونِي

(٣) في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه أن يُمرَّض في بيت عائشة ، فأذن له ، وقات عائشة : قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَخْرِي وَتَخْرِي .

(٤) من المعلوم أنها « ض » لم تتزوج بغيره صلى الله عليه وسلم .

(٥) في الصحيح قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : أَرَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ جَاءَنِي بِكَ

الملكُ فِي سَرِقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ ، فَقَالَ هَذِهِ أَمْرَأَتُكَ ، فَقُلْتُ إِنْ يَكُونُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُخَيِّضُهُ .

- ٩ (أنا بكره العذراء^(١) عندي سره
 ١٠ (وتكلم الله العظيم مجبتي
 ١١ (والله خفّرني^(٣) وعظّم حرّمتي
 ١٢ (والله في القرآن قد لعن الذي
 ١٣ (والله وبّخ من أراد تنقضي
 ١٤ (إنسي لمحصنة الإزار بريئة^(٤)
 ١٥ (والله أحصني بخاتم رسّله
 ١٦ (وسمعت وحي الله عند محمد
 ١٧ (أوحى إليه^(٧) وكنت تحت ثيابه
 وضجيعه في منزلي قمرات
 وبرّاتي في محكم القرآن^(٢)
 وعلى لسان نبيه برّاني^(٤)
 بعد البرّاة بالقبيح رماني^(٥)
 إفكاً، وسبّح نفسه في شأني^(٦)
 ودليل حُسن طهارتي إحصاني
 وأذلّ أهل الإفك والبهتان
 من جبرئيل ونوره يغشاني
 فحنا عليّ بثوبه وخبّساني^(٨)

* * *

- ١٨ (من ذانفاخرني ويُنكر صحبتي
 ١٩ (وأخذت من أبويّ دين محمد
 ومُجدّد في حجّره ربّاني
 ومهما على الإسلام مُصنطحيان

- (١) من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكراً غير عائشة .
 (٢) أنزل الله عز وجل في برامتها عشر آيات هي قوله تعالى : « إن الذين جاءوا
 بالإفك عصبة منكم » الآيات ١١-٢٠ من سورة النور .
 (٣) بالنشديد ، أمّني وحماني ، وفي نسختنا ونسخة ٨٣٠ خيرني بالياء .
 (٤) بتخفيف الهمزة .
 (٥) يشير إلى الآية ٢٢ من سورة النور وهي قوله تعالى : « إن الذين يرمون
 المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة » .
 (٦) يشير إلى قوله تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا
 سبحانك ، هذا بهتان عظيم » وسبّح نفسه هو ما في نسخة ٦٠ وبقي النسخ فيها سبّح
 شأنه ولعلها تصحيح .
 (٧) في نسخة ٦٠ أوحى ، وفي باقي النسخ يوحى ، والإشارة لما في الصحيح قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام ... الحديث .
 (٨) بتخفيف همزة خباني .

- (٢٠) وأبي أقامَ الدينَ بعدَ محمدٍ
 (٢١) والفخرُ فخري والحِلافةُ في أبي
 (٢٢) وأنا ابنةُ الصديقِ صاحبِ أحمدٍ
 (٢٣) نصرَ النبيِّ بِمالِهِ^(١) وفَعالِهِ
 (٢٤) ثانيهِ في الغارِ الذي سَدَّ الكُوفى^(٢)
 (٢٥) وجنى العنا حتى تخللَ بالعباءِ^(٤)
 (٢٦) وتخللتُ معه ملائكةُ السما
 (٢٧) وهو الذي لم يخشَ لومةَ لائمٍ
 (٢٨) قتل الألى منعوا الزكاةَ بكُفْرِهِم^(٥)
 (٢٩) سبقَ الصحابةَ والقراةَ للهدى
 (٣٠) والله ما استبقوا لنيل فضيلة
 (٣١) إلا وصارَ أبي إلى عليائِهِما

* * *

- (٣٢) ويلٌ لعبدٍ خانَ آلَ محمدٍ بعداوةَ الأزواجِ والأختانِ^(٧)

- (١) في الحديث : ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر .
 (٢) جمع كوة يريد ثقباً كانت في الغار سدها أبو بكر بقطع من ثوبه .
 (٣) يشير إلى قوله تعالى : « ثاني اثنين إذ هما في الغار » .
 (٤) يشير إلى نزول جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر قد تخلل بعباءة وسؤال جبريل عنه وإجابة النبي له بأنه أنفق ماله عليه يعني حتى افتقر . وفيه أن جبريل أقرأه السلام من الله عز وجل وقال له إن الله تعالى يقول لك أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ الحديث ، وقد ذكره هو وتخرجه المحب الطبري في الرياض النضرة .
 (٥) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتدت قبائل من العرب ، وامتنعت قبائل أخرى من أداء الزكاة فقاتلها كما قاتل المرتدين . وبذلك حُمى أركان الإسلام من الضياع .
 (٦) في نسخة ٦٠ بمكانه بالباء ، وهو تصحيف .
 (٧) جمع ختن وهو زوج البنت ، وقد سوَّى في هذا بين من يُعادي هائشة وعلياً « ض » .

- (٣٣) طُوبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَاحِبِهِ
 (٣٤) بَيْنَ الصَّعَابَةِ وَالْقِرَابَةِ أَلْفَةٌ
 (٣٥) هُمْ كَالْأَصَابِعِ فِي الْيَدَيْنِ تَوَاصِلًا
 (٣٦) حَصِرَتْ^(٢١) قُلُوبُ الْكَافِرِينَ بِوَالِدِي
 (٣٧) تُحِبُّ الْبَتُولَ وَبِعَلْمِهَا لَمْ يَخْتَلَفْ
 (٣٨) نُسِجَتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدًّا فِي لُحْمَةٍ^(٣)
 (٣٩) وَاللَّهُ أَلْفٌ بَيْنَ وَدِّ قُلُوبِهِمْ
 (٤٠) رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ صَفَتْ أَخْلَاقَهُمْ
 (٤١) فَدَخُولُهُمْ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ كَلْفَةٌ
 (٤٢) جَمَعَ الْإِلَهُ الْمَسْلَمِينَ عَلَى أَبِي
 (٤٣) وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَةَ عَبْدِهِ
 (٤٤) مَنَ حَبَّتِي فَلِيحْتَنِبَ مَنَ سَبَّتِي
 (٤٥) وَإِذَا مُحِبِّي قَدِ الظِّ بِمُبْغِضِي
 (٤٦) إِنِّي لَطَيِّبَةٌ خُلِقْتُ لَطِيَّبٍ
 (٤٧) إِنِّي لَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ أَبِي
 (٤٨) اللَّهُ حَبَّتِي لِقَلْبِ نَبِيِّهِ
 (٤٩) وَاللَّهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كِرَامَتِي

(١) هذا تأكيد على مذهب أهل السنة وهو موالاة الآل والأصحاب جميعاً .

(٢) ضاقت .

(٣) في جميع النسخ: لحمه بالهاء، والتصحيح من نسخة ٦٠ .

(٤) في نسختنا ونسخة ٨٣٠ : طغياني، وليس بشيء . والطعان المراد بها هنا كثير

الطعن والعيب .

(٥) في نسختنا ونسخة ٨٣٠ : صافى . وما أثبتناه هو ما في النسختين الأخريين

وهو أولى .

(٦) هكذا في نسخة ٦٠ وفي باقي النسخ : طيب .

٥٠) والله أسأله زيادة فضلهِ وحمدتهُ شكراً لما أولاني

* * *

- ٥١) يامن يلوذُ بيت آل محمدِ يرجو بذلك رحمةَ الرحمن
 ٥٢) صلْ أمهات المؤمنين ولا تجِدْ عَنَّا فتسلب حُلَّةَ الإيمانِ
 ٥٣) إنِّي لصَادقةُ المقالِ كريمةُ إي والذي ذلّتْ له الثقلانِ
 ٥٤) خذْها إليك فإنما هي رَوْضةٌ محفوفة بالروح^(١) والريحانِ
 ٥٥) صلتى الإلهُ على النبي وآله فيهم تسم^(٢) أزاهر البستانِ

عبد الله كتون

(١) في النسخ الثلاث غير ٦٠ : بالراح ، وهو خطأ .

(٢) في نسخة ٦٠ : تنم ، بالنون